مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري المجلد 15/العدد01 (2019)ص56-68

مصطلح الروايةالتاريخيةبين المفهوم والنشأة

The term historical novel between concept and origin

ربيعة بدري

جامعة محمد خيضر –بسكرة/rabia.badri@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2018/07/09تاريخ القبول: 2018/09/18 تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص

سنتناول في هذا الموضوع مصطلح الرواية التاريخية من حيث هو نوع أدبي له خصائصه ومقوماته، ولهذا كان لابد من الوقوف على مفهوم ونشأة المصطلح الذي جمع بين مصطلحي الرواية والتاريخ وقام بدمجهما في هوية سردية واحدة، ومنه نجد مصطلح الرواية التاريخية يعني النص الذي يستعيد أحداث التاريخ ويعيد إنتاجها وصياغتها وفق زمن الحاضر، بهدف معالجة الأوضاع الراهنة وبالتالي ربط الماضي بالحاضر، بحيث يلجأ الكاتبإلى توظيف المادة التاريخية توظيفا فنيا بالاعتماد على الخيال الفني والتجربة الإنسانية، وذلك باستعمال الأدوات الفنية مايجعل منه نصا إبداعيا له وظيفة جماليةوقد مر المصطلح عند نشأته بعدة مراحل عند الغرب والعرب مما جعل منه نوعا أدبيا أكثر فنية ونضجا وتطورا على أيدي رواد كتاب الرواية التاريخية.

الكلمات المفتاحية : الرواية ، المصطلح، التاريخية، التوظيف، الأدوات.

Abstract:

This topic deals with the concept of the historical novel as a literary genre with its features and basics. Thus, it isessential to focus on the concept and its foundation which fuses two terms: novel and history in a single narrative identity. The concept of the historical novel refers to the text which recalls the events of history and reproduce them within the current time frame. The objective of doing so is to deal with the current events and therefore making a liaison between the past and the present, in which the author utilizes artistically the historical material depending on the artistic imagination and the human experience. In doing so, the author makes use of the artistic/literary devicesto produce a creative text of an aesthetic function. The concept of historical novel, with the Western and Arab writers, has gone through many phases during its evolution, which makes it a more mature, artistic and developed literary genre due to the efforts of its pioneering authors.

Keywords :

Novel, term, historical, employment, tools

المؤلف المرسل: ربيعة بدري

الاميل:badri@univ-biskra.dz

الملخص:

بما أن الرواية جنس أدبي ظهر حديثا فقد لقى اهتماما بالغ التأثير من قبل النقاد والدراسين والباحثين في الدراسات الحديثة، مما جعل اتجاهاتها تتعدد وتختلف وتنبثق عنها أنواعامختلفة بحسب موضوعاتها ووجهة نظر كتابها فظهر منها:الروايةالواقعية،الرومنسية والبوليسية والتاريخية،الأمر الذي بات الحديث عنه ملحا والبحث فيه مستمراحول مايعرف أو يسمى أو يطلق عليه بالرواية التاريخيـة،التي تشكل خطاباسرديا خاصا بيد أن " الحتميات (الدراسية) باتت ترى في الخطاب التاريخي خطابا سحريا لإنتاج الحقيقة في مقابل خرافية الحكي والقصة، وكثيرا مايرادف التاريخ في أذهان الكثيرين لفظ حقيقة في مقابل الرواية أو الخيال أو التخريف،ويستتبع هذا الاعتبار إقرارا بوضعيتين خطابيتين متمايزيتين ...والواقع أن الذي بين الرواية والتاريخ من ترابط وتواشج هو أكبر من مجرد تماس واقعي،بل ثمة ما يشي بأن النسغ السردي للكتابتين يطوي هوية واحد"[1].يتبين أنه بالرغم من طبيعة التاريخ التي تدل على كل ما هو حقيقي، في مقابل الرواية التي توحي بكل ما هو خيالي، فإن هناك ما يثبت بأنه يمكنهما الدمج في هوية سردية واحدة.

فقد نجد أن التاريخ يستنطق الماضي والواقع بينما تسائل الرواية الحاضروالخيال مع أنهما ينتهيان معا إلى حكاية وعبرة، لكن استقرار الطرفين منذ القرن التاسع عشر في حلقين متغايرين لم يمنع عنهما الحوار ولم ينكر العلاقة بين التاريخ والإبداع الأدبي[2].مما يثبت بأن ثمة علاقة ممتدة وجدلية في الآن ذاته بين الفن والتاريخ بحيث " تتشكل من بنية معقدة تمزج بين الايديولوجيا والفن، لأن التاريخ حين يصبح مادة للرواية يصير بعثا للماضي،يوثق علاقتنا به، ويربط الماضي بالحاضر برؤية فنية شاملة، فيها من الفن روعة الخيال ومن التاريخ صدق الحقيقة " [3]. ممايثبت ويوثق العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة بين الرواية والتاريخ

ومنه نجد أنه كما جرى الحديث عن الرواية التاريخية، وقع التمييز بين مايتركبمنهما المصطلح وهما كما هو معروف مصطلح الرواية ومصطلح التاريخ، بحيث " وقع التفريق بين التاريخ الذي هو خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الوقائع. والرواية التي هي خطاب جمالي تقدم فيه الوظيفة الإنسانية على الوظيفة المرجعية " [4].بحيث تم التمييز بين مصطلح الرواية ومصطلح التاريخ والتأكيد على أن الأول خطاب إبداعي فني والثاني يتعلق بتتابع الأحداث الواقعية.

إن مصطلح الرواية التاريخية يحاول أن يدمج ثنائية الرواية والتاريخفي هوية سردية جديدة،ومنه يحيد أمرالبحث في مقدار خضوع التخيلات السردية لمبدأ مطابقة المرجعيات التاريخية، فينفتح على كتابةلاتحمل وقائع التاريخ ولاتعرفها، إنماتبحث في طياتها عن العبر المتناظرة بين الماضي والحاضر،وعنالتماثلات الرمزية فيما بينها[5].

بحيث تستمد الرواية سماتها من التاريخ ممايشكل مرجعية لها وتتخذ منها موضوعا إبداعيا تضفي عليه من الجمالية والفنية، مايجعل منه حكاية وقصة تحيد في مضمونها عن الواقعية وعن وظيفتها التوثيقيةوالوصفية وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية رمزية تحمل كثيرا من الدلالات والمعاني.

وفي هذا الصدد هناك من يقر بأن: " رجال الأدب يذهبون في حوارهم إلى أن التاريخ سواء كان علما أم غير علم فهو لاريب فن من الفنون،وأن العلم بالغا مابلغلايعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقةاليابسة، وأنه لا مندوحة عن خيالالشاعر إذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها،فإذا ما أحياها الخيال فهي بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير حتى تبز في الثوب اللائق بها، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة في عالمنا هذا[6].

يتبين أن التاريخ بما أنه حكاية واقعية ضاربة بجذورها في القدم،فهو مجردتكرار لحوادث ماضية تصبح بمرور الوقت جافة، يكون الإبداع الأدبي والجنس السردي بصفة خاصة إعادةإحياء لتلك الحوادث في الحاضرممزوجة بخيال الكاتب الفذ وبراعته لتصبح موضوعا مسطرا في الجنس الروائي المعاصر متطلعة وحالمة بمعالجة الوضع الراهن،بحيث يتحول إلى أداة فعالة وفاعلة في المجتمع والعالم بأسره.

وعموما كان هذا فيما يخص كيفية اقتراب الرواية والتاريخ ومحاولة الرواية اتخاذ التاريخ مرجعية ومادة لها، تحيك منه حكاية وقصة بروح إبداعية وفنية تثير اهتمام القارئ لتأثيرها عليه بجماليتها وماتحمله من دلالات ومعاني قيمة فضلا عن تزويدها له بأفكار نيرة،وعندامتزاجهماواندماجهما تحت مصطلح واحداصطلح عليه بالرواية التاريخية، ولفهم المصطلح أكثر نحاول بدورنا الوقوف على مفهوم مصطلح الرواية التاريخية.

1- مفهوم الرواية التاريخية:

إن الرواية التاريخية ذات طبيعة مركبة جمعت بين مصطلحي الرواية والتاريخ،ولقد تعرضت كثيرا من الدراسات لاستهلاك مصطلح الرواية التاريخية،ولهذا فليس من السهل الوقوف على

مفهوم جامع لمصطلح الرواية التاريخية وذلك يرجع لاختلاف تصورات النقاد والدارسين ورؤاهم اتجاه هذا النوع من الرواية.

نجد أن الفنان يستخدم الوحي والإلهام في أحداث التاريخ، بحيث يستلهم التاريخ في إبداعه الفني ويتخذ منه نواة ينطلق منها خياله الذي يسهم بدوره في إعادة كتابة التاريخ وصياغته وفق رؤيته ومنظوره[7].

وتعد الرواية التاريخية عند فليشمان " عندما تكون أحداثها في الماضي،وعندما تحتوي على وقائع تاريخية، ويكون أحد أبطالها شخصية تاريخية" [8]. ممايثبت بأن الرواية على علاقة بالتاريخ، بحيث يتشكل بناؤها على أساس أحداثه وشخصياته لمعالجة الراهن.

بينما يصف جورجلوكاتش الرواية التاريخية بأنها: " رواية تثير الحاضر،ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق" [9].أي تعمل الرواية على إثارة الحاضر من خلال الرجوع إلى الماضي .

ويعرف ألفرد شيبارد(AlfredSHeppard) الرواية التاريخية بقولـه: " تتنـاول القصة التاريخية الماضي بصورة خيالية.يتمتع الروائي بقدرات واسعة يستطيع معها تجاوز حدود التاريخ،لكن على شرط ألا يستقر هناك لفترة طويلة،إلا إذا كان الخيال يمثل جزءا من البناء الذي يستقر فيه التاريخ" [10].بحيث يعود المؤلف إلى التاريخ من أجل إعادة إنتاجه وفق الحاضر.

ويذهب ويستر(Wister) إلى أن الرواية التاريخية هي التي " تمثل شكل سردي يقدم وصفا دقيقا لحياة بعض الأجيال" [11]. مع أن هذه الأوصاف قد تنطبق على كثير من القصص السردية.

أما بيوكن(Buchan) فيقول عن الرواية التاريخية بأنهاهي " كل رواية تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة منفترات التاريخ" [12].بحيث تختار لحظة أو فترة تاريخية معينة لتعيد أو تحاول معالجة أوضاع الحياة وإعادة ترتيبها.

فقد يشترط في الرواية التاريخية بأن " تختص بفترة تاريخية محددة يعمل فيها الكاتب أدواته الفنية لإعادة إظهار هذه الفترة إظهارا فنيا موحيا بعيدا عن سطوة الوثائقية" [13].أي يعمل الكاتب خياله من أجل إعادة صياغة حادثة تاريخية بعيدا عن الحقيقة.

وهذا يثبت بأن الرواية التاريخية " تعتمد الزمان الموثق والمكان المحدد والحادثة المعرفة،فتستثمر جهد المؤلف الذي حقق الواقعية وتتقاطع معه في الوقت ذاته" [14]. أي تعتمد الرواية التاريخية على الرجوع إلى فترة محددة زمانيا ومكانيا،ولكن ليس بصورة مطلقة أو مطابقة للحقيقة ذلك لأن المؤلف يستعمل أدواته الفنية ممايجعلها خيالية وذات قيمة إبداعية.

كما يشترط في الرواية التاريخية ولتكتسب صفة الأدبية،أن تعيد تشكيل المادة الحكائية (التاريخ) تشكيلا تواصليا مع الحاضر المعاش كما أنه لابد من أن تظهر رؤية الفنان في هذا التشكيل حتى تكتمل أبعاد هذا العمل[15].أي الكاتب يستقي بعض الأحداث الماضية ويعيد كتابتها وفق زمن الحاضر ورؤيته الخاصة حتى يكتمل النص الأدبي.

إذن فالرواية التاريخية تعني إعادة إنتاج لأحداث التاريخ وفق زمن الحاضر، مايجعل من المادة التاريخية هي المشكل للأحداث الروائية مما يثبت بأنه عملا أدبيا خالصا.

أما على الصعيد العربي والدراسات العربية فإننا نجد ثمة تعريفات عدة لمصطلح الرواية التاريخية كشفت عن جهود النقاد والباحثين،ومماجاء في تعريف الرواية التاريخية " أنها ليست تاريخا خالصا محققا يرجع إليه،ويوثق عليه، ولكنها مع ذلك تستمد مادتها من التاريخ، وتؤثر بدورها في فهمنا له وطريقتنا له في عرض حوادثه وسرد أخباره وتصوير شخصياته،وأعظمالروايات التاريخية وأدلها على قوة الخيال وإجادة البحث والاستقصاءلاتغني غنى التاريخ ولاتقوم مقامه،وقد لاتتناول حوادثه المأثورة إلا عرضا وقد تحاول أن تصنف مواقف معينة تشبه ماورد في التاريخ، ولكنها ليست المواقف التاريخية بنصها وفصها وخيرها وشرها،وقد تعرضها بلاغيا وتفسرها تفسيرا فنيا يلائم أهداف الرواية التاريخية ويوافق وضعها وجوها" [16].

يتضح بأن الرواية التاريخية " ليست مجرد اجترار لأحداث تاريخية سواء أكانت هذه الأحداث قريبة العهد بنا أم بعيدة،بل إن الرواية التاريخية بالمفهوم المعاصر تعني بعث التاريخ بتصورات الحاضر ورؤاه،والروائي هنا يبحث عن هويته وعن هوية المجتمع الذي ينمتي إليه،ويقوم البحث عن هوية الذاتية على مسألة الحاضر والماضي،وعلى مقارنة الأزمنة المتجددة التي نسجت حاضرا معينا. والنص الروائي في تفتيشه عن هوية معينة يعقد حوارا بين الازمنة مختلفة، ويكون شكلا من كتابة التاريخ، يتضمن الخطاب التاريخي ويفيض عنه"

[17]. إذن فلا بد من أن تنطوي الرواية التاريخية على رؤية المؤلف الأتية إزاء مجريات الماضي،وهي رؤية متجددة تعيد إنتاج الخطاب التاريخي في مرجعيته الموثقة.

2- نشأة الرواية التاريخية :

أ- في الأدب الغربي:

من المتفق عليه لدى كثير من النقاد أن بداية ظهور الرواية التاريخية كانت في مطلع القرن التاسع عشر،ويعد الكاتب والترسكوت(Walter Scott) رائد هذا النوع من الروايات وروايته التاريخية الأولى كانتبعنوان(ويفرلي) عام 1814، وقد اتخذت من ثمانمئة عام من التاريخ الأسكتلندي والإنجليزي والفرنسي ميدانا له[18]. "وقد وقف سكوت في بداية خط الروائيين التاريخين في أوربا وهو الذي ثبت السمات الفنية الجديدة الخاصة بالرواية التاريخية،والتي اتبعتمن بعده،وأحدث ثورة في الكتابة التاريخية" [19]. بحيث يعد سكوت أول من كتب الرواية التاريخية في أوربا، ولهذا أصبح رائدا في هذا المجال.

مما جعل بوشكين يصف التأثير الذي أحدثته رواية سكوت التاريخية على أدب أوربا بصفة عامة خلال القرن التاسع عشر بقوله: " إن تأثير والترسكوت يمكن أن يحس في كل جانب من جوانب أدب عصره،وقد كونت مدرسة المؤرخين الفرنسين الجديدة نفسها تحت تأثير الروائي الأسكتلندي، وقد أراهم مصادر جديدة كليا كانت قد بقيت حتى ذلك الوقت مجهولة رغم وجود دراما شكسبير وغوته التاريخية" [20]. بحيث أن كتابات سكوت في الرواية التاريخية كان لها تأثير كبير على أدباء عصره، مما جعلهم يقتفون أثره لأنه أمدهم بمصادر جديدة لم تكن معروفة من قبل.

أما جورجلوكاتشفقد حدد بداية ظهور الرواية التاريخية إلى ماقبل القرن التاسع عشر بقرنين،تعود إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، ووفقا للوكاتش يمكن أن تعد الأساطير مقدمات للرواية التاريخية، وهي تعود إلى ماض أبعد تعود إلى الصين والهند. إلا أن والتر سكوت هو الذي كان له الفضل ورائدا في هذا المجال،فقد تمكن من خلال رواياته التاريخية من أن يعري حقبا بارزة من التاريخ الشعبي الأسكتلندي[21]. أي أن سكوت يعد هو الرائد في مجال الرواية التاريخية، كونه تمكن من الرجوع إلى التاريخ القديم واتخذ منه مادة لرواياته التاريخية، مما أسهم في التعريف ببعض أحداث تاريخ الشعب الأسكتلندي.

وقد أدى ذلك بكثير من الكتاب الأوربيين إلى اقتفاء خطى سكوت في كتابة الرواية التاريخية، وساروا علىنهجه في تمثيل أسس الرواية التاريخية الجديدة، مما جعل هذا النوع يزدهر في كل بلد كان الأدب فيه مزدهرا بوجوده.وقد كان سكوت يجعل للشخصيات المكان الثاني في قصصه لئلا يتقيد بالتاريخ وحتى لايمنعه ذلك من ممارسة حريته الفنية،بحيث كان يخلق شخصيات أخرى يمثل كل منها طبقة أو اتجاها في العصر التاريخي الذي يضيفه مع اجتهاده،في إحياء ذلك العصر بعاداته وتقاليده ومقوماته[22]. بحيث كان سكوت يأخذ من التاريخ ولا يتقيد به ليتمكن من ممارسة عمله الفني بكل حرية.

ويكمن فن سكوت في تفريد أبطاله التاريخين بطريقة تجعل لها سمات فردية محضة معينة للشخصية وخاصة بها، تجعلها على علاقة معقدة مع العصر الذي تعيش فيه، مع سعيه إلى قيادتها إلى الانتصار ،وقدانتقد المؤرخون موقف سكوت من الحقائق التاريخية وقالوا بأنه كان يعبث بالتاريخ ويحوره في سبيل القصة [23].أي يستعير سكوت بعض الأبطال من التاريخ ليوظفها في أعماله ويجعلها تعيش علاقة معقدة مع عصرها، مما سبب في انتقاده من قبل المؤرخين بعبثه بالتاريخ.

وهناك من يقرر بحرية الفنان في تغيير حوادث التاريخ وتأويلها وترتيبها، لأن الحقائق التاريخية وحدها لاترضيالعقل،ولكن الفن يتدخل في هذه الحقائق فيغيرها ويؤلها ويعيرها جمالا مثاليا فتصير الحقيقة فيه بعد ما كانت حقيقة تاريخية[24]. بحيث يمكن للفنان بأن يغير حوادث التاريخ في سبيل إنتاج عمله الحكائي، كونه ليس في مقام عرض حقائق التاريخ وإنما إنتاج نص قصصي فيه من الخيال والفنية ما يحقق الجمالية وحقيقة خاصة بالنص الإبداعي.

وبرز في فرنسا أيضا الكاتب ألكسندر دوماس الأب(Alexander Dumas) الذي تأثر بسكوت في طريقة بنائه للرواية التاريخية، بحيث اعتنقها وأخلص لها وطبقها في قصصه بحرية وتوسع[25].وعلى صعيد الأدب الروسي نجد تولوستوي صاحب رواية (الحرب والسلام) التي كتبت مابينعامي 1869/1865، وقد تناولت تاريخ الغزو الفرنسي لروسيا[26]. بحيث نجد أن أبرز الكتاب تأثروا بطرقة كتابة سكوت في مجال الرواية التاريخية.

وعموما فقد ذهب أحد النقاد إلى أن الرواية التاريخية مرت بثلاثة أطوار في أواخر القرن التاسع عشر نذكرها فيما يلي [27] :

-طور الإيحاء التاريخي أي تفسير التاريخ من الخارج من خلال الحملات والمبارزات والأسلحة والملابسويمثله سكوت ودوماس.

-طور التفسير العقلي ويمثلهايتونوايبرس.

-طور التفسير الإنساني العاطفي أي تفسير التاريخ من الداخل من خلال العواطف الإنسانية.

وفي مطلع القرن العشرين تطور مفهوم الرواية التاريخية وغدت لونا من ألوان التفسير الحضاري الفلسفي المبني على وقائع التاريخ، فظهرت مدرسة تعنى بالدقة التاريخية ولاتبيح لنفسها التصرف في أحداث التاريخ وتقصر عملها على خلق بعض الشخصيات وإضافة أو استحضار بعض الحوادث التاريخيةالتي تعيش على ربط أجزاء القصة وإبرازها للقارئ. بحيث تطورت الرواية التاريخية في استناد الرواية على التاريخ، ليتمكن الكاتب من تفسير الحاضر من خلال الماضي، وذلك بأخذ بعض الأحداث وخلق بعض الشخصيات مما يمكن من ربط أجزاء النص ببعضها البعض،ومنه غدت الرواية التاريخية أكثر فنية.

ب-في الأدب العربي:

كان اتصال العرب بالعالم الغربي إثر حملة نابيلون على مصر وبلاد الشام في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر،حيث أصبح تأثر العرب بالغرب واضحا في جميع جوانب الحياة خاصة الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية،فضلا عن الدور الذي لعبته وحققته الإرساليات الأوربية إلى الشرق العربي،والبعثات الدراسية العربية إلى أوربا وظهور الصحافة ونشاط المستشرقين وأدباء المهجر في الأمريكيتين وحركة الترجمة،مما أدى إلى قيام دعوات تجديدية تدعو إلى ضرورة الاتصال بالثقافات الأجنبية بما فيها فن الرواية[28].إذ كان اتصال العرب بثقافة الغرب واضحا وفي جميع مجالات الحياة بما في ذلك العمل الإبداعي.

وقد تباينت أراء النقاد العرب في مصدر هذا النوع من الرواية في الأدب العربي، فهناك من يذهب إلى أنها وجدت في ضوء التراث العربي فهي امتدادا لفنون أخرى كالمقامات والسير والقصص الشعبية. وهناك من يذهب إلى أنها وجدت بفعل ماوصلنا منها في الأدب الغربي إلى العرب،فهي تكون امتدادا أو فرعا للثقافة الغربية مع النهضة الحديثة بفعل التأثر[29].

حيث كان الاختلاف واضحا في مسألة مصدر هذا النوع من الرواية، فالبعض ينسبها إلى التراث العربي كونها تعد امتدادا للمقامات والقصص الشعبي، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنها وصلت إلى الأدب العربي بفعل التأثر بالأدب الغربي في عصر النهضة.

وقد ذهببعض النقاد إلى أن قصص سليم البستاني فيها مايشبه قصص سكوت ودوماس إلى حد بعيد، فكانت روايته التاريخية الأولى (زنوبيا) التي صدرت عام 1871 وكانت (بدور) عام 1872 و(أسماء) عام 1873، وهناك من عاب عليه افتقاده إلى الترابط ومزايا الوصف،إضافة إلى تميزهبالسطحية والتفكك، وهي روايات مليئة بالمواعظ والعبر والنصائح، وشخصيات غير فاعلة وتنويع الأساليب من حوار وسرد[30]. حيث عد سليم البستاني من الأوائل الذين كتبوا ما يشبه أدب سكوت ودوماس وذلك بظهور عدد من أعماله في مجال الرواية التاريخية.

ومنالأدباء العرب الذين كتبوامايشبه قصص سكوت ودوماس، كرم ملحم،جورجيزيدان،فرحأنطون،معروفأرناؤوط،سعيد العريان وغيرهم،ويعد النقاد الكاتب زيدان رائد القصة التاريخية في الرواية العربية الحديثة، إذ كتب أكثر تقريبا من عشرين رواية تاريخية طويلة، تروي الأحداث الكبرى في التاريخ العربي والإسلامي،وحاول زيدان التوفيق بين متطلبات البيئة وتأثره بالرواية الغربية، وكان له أكبر أثر في ظهور الرواية التعليمية وهو تيار يتراوحمابين التعليم والتسلية والترفيه،وقد جعل زيدان العمل الأدبي خادما للتاريخ بحيث يجعل الرواية وسيلة لإلباس التاريخ لباس الطلاوة والفكاهة ممايزيد من تشويق العامة لمطالعة التاريخ بأسلوب فكاهي[31]. حيث ظهر عدد من كتاب العرب للرواية التاريخية وكان على رأسهم جورجي زيدان الذي كان له ما يفوق العشرين رواية تاريخية حول التاريخ العربي والإسلامي، وذلك بأسلوب يمزج بين التعليم والتسلية.

ثم ظهرت الرواية التاريخية التي تهدف إلى إحياء الماضي بعد الحرب العالمية الثانية على يد كتاب من أمثال نجيب محفوظ وعادل كامل وأحمدباكثير لكون زيدان كان ينقصه الإحساس القومي واقتصر على أن يكون معلما للتاريخ[32]. فلقد تطورت الرواية التاريخية وأصبحت تهدف إلى بعث الماضي وإعادة إحيائه على يد عدد من الكتاب العرب.

وقد غدت الرواية التاريخية أكثر تحررا من قيود التاريخ فلم تعد مهمة الروائي خلق نص روائي بجعل تسمية العصر التاريخي وتصويره فحسب،بل تجاوزت كل هذا إلى توظيف المادة التاريخية توظيفا فنيا بالاعتماد على الخيال الفني والتجربة الإنسانية في بناء الرواية[33].بحيث أصبح الروائي يلجأ إلى التاريخ لتوظيفه وذلك بالاعتماد على أدواته الفنية وتجاربه في بناء نصه الروائي.

نجد أن روايات نجيب محفوظ التاريخية جسدت لمحات من التاريخ الفرعوني في ثلاثة من أعماله كانتبعنوان (عبث الأقدار) عام 1939، و(رادوبيس) عام 1943، و(كفاح طيبة) عام 1944، حيث شكلت هذه الروايات تقدما ملحوظا في نهضة الرواية التاريخية بعد أن كانت عند كتاب الجيل الأول إعادة كتابة التاريخ بصورة تهدف إلى تثبيت أحداثه من خلال تمحورها حول قصة مبتدعة ومشوقة وتمثلها جورجي زيدان الذي كان يتحسس التاريخ في أعماله الروائية في فترة مافيملأها بحكاية غرامية تكون محورا للأحداث[34]. أي يتمحور العمل الروائي حول فترة من التاريخ وداخلها قصة غراميةلتثبت عنصر التشويق في النص.

أما عند كتاب الجيل الثاني فنجد أن الرواية أصبحت أقل تبعية للتاريخ، حيث يقتصر الكاتب في إبداعه على مسمى العصر التاريخي وأدائه وصوره فقط، أي يتجاوز ذلك إلى توظيف المادة التاريخية توظيفا فنيا بالدرجة الأولى ويمثل هذا الجيل نجيب محفوظ الذي يعد أبرز كتاب الرواية التاريخية العربية[35]. وكان نجيب محفوظ رائدا في هذا المجال بحيث أحدث تطورا مشهودا له فيما يعرف بالرواية التاريخية.

وعند كتاب الجيل الثالث نجد أن الرواية التاريخية تحولت تحولا ملحوظا وجادا نحو إقرار مزيدا من الأدبية للرواية التاريخية،بحيث يستثمر الروائي التاريخ لغايات إبداعية خالصة تسهم في نقد الذات،وذلك بتدخل المؤلف لبث وجهة نظره التي تلجأ إلى الماضي برؤية آنية، أي توجه نحو المستقبل حتى نستفيد من أخطاء الماضي[36]. ليتبين أن المؤلف يعتمد على التاريخ في استعادة لحظة أو فترة معينة يتخذ منها مادته للتعبير عن وجهة نظره أو رؤيته الخاصة باستعمال أدواته الفنية فينص إبداعي يحاول من خلاله معالجة الراهن أوما قد يعترض الإنسان في مستقبله، وهنا تكمن مدى فنية وجمالية النص في محاولة الربط بين الواقع والمتخيل أو الماضي والحاضر.

ونجد أن من أشهر رواد هذا الجيل والذي تزعم هذا النوع من الكتابة الروائية جمال الغيطاني الذي كتب رواية (الزيني بركات) وهي رواية تاريخية لامعة ضمن تقنيات فنية متطورة،كما نجد من رواد هذا الجيل أيضا وأبرزها عبد الرحمن منيف الذي كتب روايته التاريخية الشهيرة بعنوان (أرض السواد)التي أعاد فيها تشكيل مجريات وأحداث تاريخ العراق في الثلث الأول من القرن التاسع عشر[37].إذ اشتهر في هذه المرحلة كل من جمال الغيطاني وعبد الرحمن منيف في مجال كتابة الرواية التاريخية بشكل متطور وأكثر فنية.

ومنه نجد أن الرواية التاريخية في أدبنا العربي قد مرت بثلاث مراحل واضحة المعالم وهي على النحو الآتي[38] :

-مرحلة استعادة كتابة التاريخ سرديا، مع محاولة التقيد بمجرياته ويهدف إلى تثبيت أحداث التاريخ أي لغايات تعليمية وذلك بصورة سردية لاتخلو من التشويق، ويعد جورجي زيدان من أبرز من يمثل كتاب هذه المرحلة.

-مرحلة الموازنة بين التاريخ الوثائقي والفن الروائي بأبعاده المختلفة أي يسكب التاريخ في قالب روائي فني واضح المعالم،وقد برز نجيب محفوظ في كتابة الروايةالتاريخية التي يتساوى فيها الجانب التاريخي والروائي بأسلوب متوازن.

-مرحلة توظيف التاريخ بصورة إسقاطيةواعية،أيبالاعتماد على الخيال الفني والتجربة الإنسانية في بناء الرواية،وهدفها الإفادة من الأحداث التاريخية التي يمكن إسقاطها على الحاضر من خلال الرجوع إلى أحداث الماضي، بحيثتسعى الرواية إلى تفسير الواقع المعيش من خلال أحداث الماضي، ومن رواد هذه المرحلة جمال الغيطانيوعبد الرحمن منيف.

يتبين أن الرواية التاريخية عند العرب مرت بعدة مراحل، بدأت بإعادة كتابة التاريخ والتقيد بأحداثه بهدف التعليم مع أنها لا تخلو من التشويق. ثم لجأت إلى الموازنة بين التاريخ والفن. ثم دخلت في مرحلة توظيف التاريخ وذلك بالرجوع إلى الأحداث الماضية ومحاولة إسقاطها على الحاضر بهدف معالجة الواقع. ليكتمل بذلك بناء الرواية التاريخية العربية وتصبح أكثر نضجا وفنية.

وعموما نجد أن مصطلح الرواية التاريخية قد لقياهتماما كبيرا لدى كتاب هذا النوع الأدبي،وقد تناوله النقاد بالتعريف مماجعل تعريفاته ومفاهيمه تتعدد وتختلف، وهي في مجملها تتمحور حول محاولةاستعادة أحداث التاريخ وذلك بالرجوع إلى الماضي، ومعالجتها وفق زمن الحاضر،يعبر الكاتب من خلالها عن وجهة نظره حول الماضي والحاضر بحثا عن ذاته وعن هوية المجتمع،بحيث يجعل من التاريخ مادة لنصه الروائي بالاعتماد على خياله وأدواته الفنية الإبداعيةمايجعل منه نصا يحيد عن وظيفته التوثيقية إلى الوظيفة الجمالية الفنية ممايثبت أدبية هذا النوع من الكتابة، وقد مر مصطلح الرواية التاريخية عند نشأته في الأدب الغربي والأدب العربي بعدة مراحل جعلت منه نوعا أدبيا أكثر نضجا وتطورا وفنية على يد أبرز رواد كتاب الرواية التاريخية.

الهوامش:

1- عبد السلام أقلمون، الرواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان،دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،لبنان،ط1، 2010، ص 09.

2- ينظر، فيصل دراج،الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب،ط1 ،2004 ص09.

3- عدنان محمد على الشريم، الخطاب السردي في الرواية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2015،ص19.

4- عبد الله إبراهيم،التخيل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة الإستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،لبنان، ط1، 2011، ص 09.

5- ينظر، المرجع نفسه، ص05.

6- عبد السلام أقلامون،الرواية والتاريخ، ص 10.

7- ينظر، حسن سالم هنيدي إسماعيل،الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دراسة في البنية السردية،دار الحامد،عمان الأردن، ط1، 2014، ص 17.

8- عدنان محمد علي الشريم، الخطاب السردي في الرواية العربية، ص 26.

9- جورج لوكاتش،الرواية التاريخية، تر:صالح جواد كاظم،دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1978، ص 19.نقلا عن نضال الشمالي،الرواية والتاريخ بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2006 ص 112 .

10- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

11- عدنان علي محمد الشريم،الخطاب السردي في الرواية العربية، ص29.

12- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 113.

13- المرجع نفسه، ص 114.

14- المرجع نفسه،115.

15- المرجع نفسه، ص 116.

16- عدنان علي محمد الشريم،الخطاب السردي في الرواية العربية، ص 30،31.

17- المرجع نفسه، ص 31.

18- ينظر، المرجع نفسه، ص 33.

19- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

20- المرجع نفسه ص 33،34.

21- المرجع نفسه، ص 34.

22- ينظر، المرجع نفسه، ص 35.

23- ينظر، المرجع نفسه، ص 36.

24- ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

25- ينظر، المرجع نفسه، ص37.

26- ينظر، المرجع نفسه، ص38 .

27- ينظر، المرجع نفسه، ص 38،39.

28- ينظر، المرجع نفسه، ص 39.

29- ينظر، المرجع نفسه، ص 40.

30- ينظر، المرجع نفسه الصفحة نفسها.

31- ينظر، المرجع نفسه، ص 41،42،43.

32- ينظر، المرجع نفسه، ص 44.

33- ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

34- ينظر، نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 121.

35- ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

36- ينظر، المرجع نفسه، ص .122

37- ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

38-ينظر، عدنان على محمد الشريم، الخطاب السردي في الرواية العربية، ص 50.
وينظر، نضال الشمالي،الرواية والتاريخ، ص 122 ،123.